

مظاهر التقاء الحضارتين المصرية والإغريقية فى عهد البطالمة

يرجع أول عهد مصر باستقرار الإغريق فيها إلى ما قبل الفتح المقدونى بحوالى أربعة قرون ، أو بعبارة أخرى إلى حوالى بداية القرن السابع قبل الميلاد ، عند ما أخذ الكثير من تجارهم يستقرون فى شمال مصر^(١) . وإذا كانت مصر قد أفادت عندئذ من نشاط الإغريق التجارى وقوة سواعدهم فى جمع ثروة كبيرة وبناء جيش قوى ، مما حدا بفراعنة العصر الصاوى إلى الترحيب بهم وموالاته النعم عليهم^(٢) ، فإن الإغريق قد جنوا عندئذ من مصر خير الثمرات ، إذ أنهم لم يجمعوا ثروات طائلة فحسب ، بل أفادوا كثيراً من الحضارة المصرية^(٣) . حقا كان العصر الذهبى لحضارة الفراعنة قد ولى وانقضى ، لكن العصر الصاوى كان عصر نهضة رائعة تهدف إلى إحياء تقاليد الماضى المجيد . وفى أثناء تلك النهضة المصرية الزاهرة كانت بلاد الإغريق لا تزال فى مهد الحضارة ، فلا عجب إذن أنه كان للحضارة المصرية أثر مشهود فى صناعات الإغريق وعلومهم وفنونهم ، وآية ذلك أنهم كانوا يحجون إلى مصر لتلقى العلم فيها .

وبين أواخر القرن السادس وأواخر القرن الرابع قبل مولد السيد المسيح كان الفلك قد دار دورة من دوراته العجيبة ، إذ حين عجزت مصر ، وقد هد المشيب قواها ، عن صد عدوان الفرس عليها ، تمكنت بلاد الإغريق فى فتوتها وشبابها من الصمود أمام الفرس . ولذلك فإنه بينما دخلت مصر فى حظيرة الإمبراطورية الفارسية ، وأخذ نجم الحضارة المصرية فى الأفول ، احتفظ الإغريق باستقلالهم ، وكان لنجاحهم فى صد عدوان الفرس عليهم رد فعل

(١) راجع موسوعة كبردج فى التاريخ القديم ، المجلد الثالث ، ص ٢٩١ .

(٢) إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ص ٢ — ٣ .

Diod. I, 96-8.

(٣) انظر

عجيب في نفوسهم قفز بحضارتهم إلى ذروة المجد في أقصر فترة عرفها التاريخ .
 ويوم قُسمت إمبراطورية الإسكندر الأكبر بين قواده عام ٣٢٣ ق . م ،
 وآلت مصر إلى أحد هؤلاء القواد ، وأعني بطليموس بن لاجوس ، الذي
 أقام على ضفاف النيل صرح مملكة حمل سلالته من بعده صولحانها قرابة ثلاثة
 قرون ، كان لواء الزعامة في عالم البحر الأبيض المتوسط معقوداً دون منازعة
 للحضارة الإغريقية ، فإنه منذ قرنين على الأقل كان العالم المتحضر يدين
 للمدن الإغريقية بالغالبية لعظمى من كل المبتكرات الحصصية في حلبة الأفكار
 والفنون والصناعات (١) .

فما كانت نتيجة التقاء هذه الحضارة الإغريقية اليافعة ، حضارة
 السادة الفاتحين ، مع الحضارة المصرية الهرمة . حضارة الرعايا المغلوبين
 على أمرهم ، في وادي النيل ؟ وهل كان العلامة ابن خلدون صادقاً في رأيه
 القائل إن المغلوب مولع دائماً أبداً بالافتداء بالغالب « هذا ما سنحاول
 إظهاره الآن في إيجاز .

لقد كان البطالة قبل كل شيء ملوكاً يعينهم توطيد دعائم حكمهم
 بأفضل السبل التي تحقق أهدافهم ، غير أنهم كانوا ملوكاً مصطبغين
 بالحضارة الإغريقية ، وفي حاجة ملحة إلى الإغريق . فقد كانت أعز أمانى
 البطالة الأوائل المحافظة على استقلال مصر السياسى والاقتصادى ولعب
 الدور الأول في السياسة الدولية (٢) . وقد كانت الدعامة الأولى للاستقلال
 والسيادة الدولية تجنيد جيش قوى وبناء أسطول كبير ، من طراز جيوش
 وأساطيل منافسيهم ، التي كانت مؤلفة من خيرة محاربي العصر ، وأعني
 المقدونيين والإغريق الذين أثبتت حملات الإسكندر تفوقهم على محاربيين
 ممتازين كالفرس . وقد كانت وفرة المال الدعامة الثانية للاستقلال والسيادة
 الدولية ، ومصر على غنى مواردها الطبيعية كانت لا تستطيع مواجهة
 المطالب الجديدة إذا بقيت شئونها الإدارية وحالتها الاقتصادية ونظمها
 المالية على ما كانت عليه عند الفتح المقدوني ، ولا سيما بسبب ما حاق

(١) Jouguet : Hist. Nat. Eg., III, pp. 15-16.

(٢) راجع إبراهيم نصحي : الكتاب سالف الذكر ، ص ٥٢ ، وكذلك

(Rostovtzeff, Soc. and Econ. Hist. Hell. World, p. 29;)

بها من التدهور نتيجة للاضطرابات التي شهدتها البلاد في خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، إبان حكم الفرس في مصر وثورات المصريين للتخلص من نيرهم . فلم يكن هناك بد من إعادة تنظيم شئون الإدارة ، والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية ، ووضع نظام مالى دقيق . ولقيام بهذه الأعمال الإنشائية الواسعة ، كان البطالة في حاجة إلى رموس أموال ، وإلى أعوان مخلصين يستطيعون فهم مراميهم والتفانى في خدمتهم^(١) . وجملة القول أن البطالة كانوا في حاجة ملحة إلى الإغريق من أجل تحقيق أغراضهم الداخلية والخارجية ، فلكى يضمّنوا لأنفسهم مكانة ممتازة في بلاد الإغريق ، وكذلك استمرار وفود الإغريق على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام ، لم يكتفوا فقط بفتح أبواب مصر على مصاريحها للإغريق ، بل أجزلوا لهم العطاء ومنحهم مركزاً ممتازاً في وطنهم الجديد ، وهيثو لهم البيئة التي تؤمّ ما ألفوه من أساليب الحياة في بلادهم ، ونصبوا أنفسهم حماة للحضارة الإغريقية ، فهرع الإغريق إلى مصر زرافات ووحداً^(٢) .

وإذا كانت قد وفدت على ضفاف النيل فئة كبيرة من الأجانب ، فإن هؤلاء الأجانب كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة إلى أهل البلاد الذين كانوا يعدون بالملايين ، في حين كان الأجانب يعدون بالآلاف . ومهما بلغت حاجة البطالة إلى الأجانب ، فإنه لم يكن لهم غناء على الإطلاق عن المصريين الذين كانوا عماد ثروة البلاد .

وهكذا نرى أن البطالة قد وجدوا أمامهم فريقين رئيسيين من سكان البلاد ، لكل منهما نظم خاصة للحكم ؛ فالإغريق نشأوا في مدن اعتادوا على الاشتراك في حكمها ، والمصريون نشأوا في دولة ملكية مطلقة تقوم على حق الملوك الإلهي . فإذا فعل البطالة حماة الحضارة الإغريقية الذين كانوا يحرصون على أن تظهر دولتهم أمام العالم باعتبارها دولة إغريقية ، لا دولة شرقية^(٣) ؟ حقاً إنهم سمحوا للمدن الإغريقية الثلاث في مصر بلون من ألوان الحكم الذاتي ، لكن إغريق هذه المدن ، وكذلك الإغريق الذين

(١) إبراهيم نصحي الكتاب سالف الذكر ، ص ٧٢٤ .

Jouguet: in Chronique d'Egypte, 1935, pp. 95-6.

(٢)

Rostovtzeff : op.cit., pp. 264-5.

(٣)

يعيشون في أنحاء مصر الأخرى كان شأنهم شأن المصريين في خضوعهم جميعاً للملك^(١). هذا إلى أن البطالمة لم يكثرُوا من إنشاء المدن الإغريقية، على نحو ما فعل الإسكندر وخلفاؤه السليوقيون في إمبراطوريتهم، بل إن البطالمة لم ينشئُوا إلا مدينة إغريقية واحدة وهي بطوليس، لكنهم ساهموا في إنشاء الإسكندرية؛ أما نقراتيس فإنها ترجع إلى عهد الأسرة السادسة والعشرين. وقد يقال إنَّ البطالمة وإن كانت حضارتهم هي الإغريقية فإنهم أصلاً مقدونيون، ومن ثم لا داعي لأن نغزو إلى مصر نظام الحكم الذي اتبعوه فيها، فقد كان يحكم مقدونيا ملوك مطلقو السلطة. ولكن هذا الدفع، كما يقول رجال القانون، وإن كان مقبولا شكلا فهو مرفوض موضوعا، لأن البطالمة أقاموا ملكيتهم على أساس إلهي، وفي مصر نشأت فكرة حق الملوك الإلهي منذ أقدم العصور^(٢). وفضلا عن ذلك فإن البطالمة اتخذوا أولا صفات الفراعنة، ولم يلبثوا أن تتوجوا على نمطهم في المعابد المصرية^(٣). ولكي يبرروا سلطتهم المطلقة في نظر رعاياهم الإغريق لم يكتفوا فقط بنشر الرسائل الفلسفية التي تمتدح سلطة الملوك، بل رفعوا أنفسهم إلى مصاف الآلهة الإغريقية^(٤). ومعنى ذلك أن البطالمة لم ينشروا بين المصريين نظم الحكم الإغريقية، بل اقتصدوا أيما اقتصاد في إقامة هذه النظم بين إغريق مصر، وأخذوا عن المصريين الأساس الذي أقاموا عليه دعائم سلطتهم الملكية.

وفي الإدارة المحلية، احتفظ البطالمة بالنظام التقليدي الذي عرفتة مصر منذ أقدم العصور، نظام تقسيم البلاد إلى مصر العليا ومصر السفلى، وتقسيم كل من هذين القسمين إلى أقاليم أو مديريات^(٥). وفضلا عن ذلك فقد كان دعامة الإصلاحات الاقتصادية والمالية التي قام بها البطالمة مبدآن مصريان ينافيان المبادئ التي كانت تقوم عليها المدن الإغريقية الحرة. وهذان المبدآن هما: — أن الملك صاحب الأرض وما عليها وما في

Rostovtzeff : op. cit., p. 323.

(١)

Jouguet : Macedonian Imp., p. 286; Moret and Davy, From Tribe to

(٢)

Empire, pp. 131 ff.; Moret: Du caractère religieux de la royauté pharaonique, p. 17.

(٣) إبراهيم نصحي، ص ١٨٦ — ١٩١ (٤) إبراهيم نصحي، ص ٢١٦ وما بعدها.

Jouguet : op. cit., p. 300.

(٥)

باطنها ، وأن الأهالى يطيعون هذا الملك الإله طاعة عمياء . وعلى الرغم من أن نظم البطالة الاقتصادية والمالية قد قامت على هذين المبدئين المصريين ، فإن البطالة قد تأثروا إلى حد بعيد فى وضع هذه النظم بتعاليمهم الإغريقية وبتجارب أعوانهم الإغريق ؛ ولذلك فإن هذه النظم وإن كانت مصرية فى جوهرها فإنها مصطبغة بصبغة إغريقية قوية . ولا أدل على الأثر الإغريقى من تنظيم النواحي الاقتصادية المختلفة بقوانين ونظم إغريقية فى روحها ومنطقها ، واتساقها ودقة صياغتها واصطلاحاتها ، ومن طريقة تنظيم الضرائب . وقد كان يتصف بروح إغريقية أيضاً إشراف الإدارة المالية على موارد الدولة المختلفة ، وكذلك نظام المحاسبة والمراجعة الذى يختلف كلية عن أى شئ من هذا القبيل عرفته مصر حتى ذلك الوقت . ومع ذلك فقد أغفلت نظم البطالة الاقتصادية والمالية إغفالاً يكاد يكون تاماً جوهر النظام الاقتصادى الإغريقى ، ويتلخص فى شيئين : — أحدهما الامتلاك الخاص الذى كانت الدولة تعترف به وتحميه ، باعتباره أساس حياة الجماعة ، والآخر هو حرية النشاط الاقتصادى ، إذ أن الدولة قلما كانت تتدخل فى ذلك . حقاً إن البطالة لم يقضوا قضاء مبرما على هاتين الظاهرتين ، إلا أنهم لم يسمحوا لهما إلا بقدر محدود يتمشى مع خطة البطالة العامة ، التى كان سداها ولحمها إشراف الدولة إشرافاً دقيقاً على كافة نواحي الحياة الاقتصادية^(١) .

وجملة القول إن أداة البطالة الحكومية وإن كانت فى جوهرها من تراث الماضى ، إلا أنها أصبحت فى مجموعها أداة إغريقية منظمة تنظيماً دقيقاً . ولا نعرف كيف استطاع البطالة تكوين هذه الأداة الحكومية الدقيقة فى بلد أجنبى ، ووسط ظروف غريبة من عناصر لم تتوافر فيها المؤهلات اللازمة لمثل هذا العمل . فإن رءوس هذه الإدارة ومديرى مصالحها المختلفة وأقسامها المتعددة كانوا كلهم تقريباً من الإغريق الذين لم يعد لهم ماضيهم للإضطلاع بمثل هذه المهام المعقدة ، إذ أنهم قبل ذلك كانوا يديرون شئونهم الخاصة بطريقة بدائية ، كما أن إدارة الشؤون العامة التى اشترك فيها بعض هؤلاء المهاجرين فى بلادهم كانت أولية ، إذا قيست بالنظم

البطلمية . إن نجاح البطالة في إعادة تنظيم الأداة الحكومية لتحقيق أهدافهم يعتبر من أبدع مبتكرات العبقرية الإغريقية ، ومن أوضح الأدلة على مرونتها واستعدادها لتكييف نفسها وفقاً للظروف التي توجد فيها^(١) . ولا يفوتنا أن نذكر في هذا الصدد أنه لم يكن لهذه التعديلات التي أدخلت على الأداة الحكومية والنظم المالية إلا أسوأ الأثر في المصريين ، إذ أن البطالة لم يستهدفوا إلا تحقيق أغراضهم الأنانية الخاصة . ولم تؤد النظم الجديدة بعسفها وبطشها إلى سوء حال المصريين المادية فحسب ، بل إلى انحطاط أخلاقهم أيضاً ؛ فقد دفعهم الظلم إلى التحايل على القانون بشتى الطرق ، كما دفعهم الفقر وشظف العيش إلى وأد أطفالهم . وهكذا كانت للظلم آثار مادية ومعنوية سواء بسواء^(٢) .

وحين وجه البطالة عنايتهم إلى النهوض بمرافق مصر الاقتصادية لم يعتمدوا على خبرة المصريين المتوارثة فحسب ، بل اعتمدوا أيضاً على دراية الإغريق الفنية والحركة العلمية الإغريقية ، إذ أن المهندسين الإغريق هم الذين أشرفوا على استصلاح مساحات واسعة من الأراضي في الفيوم^(٣) ، وغيره من الأقاليم^(٤) التي تشبهه ، وبوجه خاص في الدلتا . وبعد أن كان المصريون لا يعرفون إلا الشادوف لرفع المياه إلى الأراضي المرتفعة ، أصبحوا يعرفون الساقية ولولب أرخيدس^(٥) (الطنبور) ؛ وكانت هاتان الآلتان من ثمره العلم الإغريقى . ولتفادى إضعاف التربة وضع نظام دقيق للدورة الزراعية ، بحيث كانت الأرض لا تزرع زراعة ثقيلة ثلاثة أعوام متتالية ، ولا تترك في نفس الوقت دون زرع^(٦) ؛ وأصبحت أغلب الأدوات الزراعية تصنع كلها أو بعض أجزائها من الحديد^(٧) . وللإغريق فضل كبير في نشر غرس الكروم والفاكهة والزيتون ، وإدخال أنواع

(١) Rostovtzeff, op. cit. : pp. 1078-81.

(٢) إبراهيم نصحي ، ص ص ٥٨٦ ، ٦٥٠ — ٦٥٧ ، ٧٥٨ — ٧٦٣ .

(٣) Rostovtzeff : op. cit., p. 361.

(٤) Edgar : Zeno Papyri in Michigan, p. 10.

(٥) Calderini : in Aegyptus, I, pp. 37-62, 189-216, 309-317.

(٦) P. Tebt. I : p. 561.

(٧) Rostovtzeff : op. cit., pp. 352-3.

جديدة منها اومن مختلف أنواع النبات^(١) . وقد وجه البطالمة عنايتهم إلى مسألة أخرى تتصل بالزراعة اتصالاً وثيقاً ، وهى تربية الحيوان ، فلم يعنوا فقط بالحيوانات التى كان المصريون يألّفونها منذ القدم ، بل عنوا أيضاً بأقلّمة ما كان مألوفاً منها عند الإغريق ، وخاصة الحيوانات ذات الأصواف الممتازة^(٢) .

وتعزى النهضة الصناعية فى عصر البطالمة إلى مهارة أهل البلاد ، وكذلك إلى مواهب المهاجرين إليها . ولا بد من أن الحركة العلمية فى الإسكندرية قد غزت الصناعة كما غزت الزراعة بثمرة تقدم العلوم والهندسة . وقد ساعد على ازدهار الصناعة إنشاء المصارف المالية ، وانتشار تداول النقود ، ووفرة رؤوس الأموال اللازمة للأنهوض بالصناعة ، ورواج التجارة ، واهتمام الملوك باستغلال الصناعة استغلالاً لم تعرفه مصر فى أى عهد من عهود تاريخها الطويل ؛ فإن ملك مصر لم يكن أكبر ملاك الأراضى فحسب ، بل كان أيضاً أكبر أقطاب الصناعة فيها^(٣) . وإذا كان المصريون قد اقتبسوا من الإغريق بعض أساليب الصناعة التى كانوا أساتذة فيها ، كصناعة الزيت والنييد والمنسوجات الصوفية ، فإن الإغريق بدورهم اقتبسوا فنون الصناعة التى بلغ فيها المصريون حداً يقرب من الكمال فى عهد الفراعنة . وكان شأن الإغريق فى مصر كشأنهم فى أى مكان آخر اتصلوا فيه بأساليب الحضارة الرفيعة القديمة ، فإنهم اقتبسوا أولاً فن الصناعة الوطنى وتعلموا كل ما لم يعلموه منه قبل ذلك ، بل أخذوا عنه بعض المظاهر وأشكال الزخرفة ، ثم صبغوا كل ذلك بالصبغة الإغريقية ، وجعلوه محبباً مقبولاً للذوق الإغريقى^(٤) . فامتلاّت أسواق العصر الهيلينستى بآنية فخارية وزجاجية ومعدنية مصنوعة على أساس الأساليب المصرية فى الصناعة ، وإن كان طراز المصنوعات إغريقياً . وهل أدت مساهمة الإغريق فى حياة مصر الاقتصادية إلى إدخال ما ألفتوه فى بلادهم من نوع اليد العاملة فى الصناعة ، أى العبيد ، على

(١) إبراهيم نصحى ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٤

Rostovtzeff : op. cit., pp. 292-5

(٢)

(٣) إبراهيم نصحى ، ص ٣٨٣

(٤)

Rostovtzeff : Large Estate, p. 135.

الرغم من وفرة اليد العاملة الحرة في مصر وقلة أجرها ؟ تشير القرائن إلى أنه في مدن مصر الإغريقية - وخاصة في الإسكندرية - لم ينهض بالصناعة الإغريقية طبقة كبيرة من أهل الحرف والصناعات الأحرار فحسب ، بل من العبيد أيضاً . أما في بقية أنحاء مصر ، خارج مدنها الإغريقية - أو على الأقل خارج الإسكندرية - ، فإننا نلاحظ أنه لا يوجد في نصوص القوانين الخاصة بنظام العمل في الزراعة والصناعة ما يستدل منه على استخدام العبيد فيها . ومعنى هذا أن الإغريق لم يغيروا قواعد الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد بوجه عام (١) .

وقد تمخض نجاح سياسة البطالة الخارجية ، وتقدم الزراعة وازدهار الصناعة ، عن رواج تجارة مصر الخارجية . وساعد على ذلك أيضاً خبرة الإغريق العريقة في هذا المضمار ، وإنشاء المصارف المالية ، وانتشار تداول النقد ، ومبتكرات العبقرية الإغريقية التي كان في مقدمتها فنار الإسكندرية المشهور الذي كان نوره يشاهد على بعد ٦٠ ك. م ؛ ومنذ أدرك الناس قيمة الفنارات انتشر هذا الاختراع سريعاً في الموانئ المختلفة .

وتمخضت أبحاث تيموستنيس ، أمير البحر البطلمي ، عن كتاب « المعارف البحرية » الذي وفر لربابنة السفن معلومات قيمة عن أحوال الموانئ المختلفة وأوصافها ، والمسافة بين كل منها . وقد ترتب على كل هذه التسهيلات أن ازدادت كثيراً في العصر الهيلينستي سرعة انتقال البضائع ، دون أن تزداد سرعة السفن نفسها زيادة كبيرة ، وذلك لأن السفن أصبحت تشق أواسط البحر بدلاً من أن تتلمس طريقها بمحاذاة الشاطئ ، كما أصبحت تسافر في أثناء الليل أيضاً بدلاً من النهار فقط (٢) .

إن البطالة الأوائل لم يدخروا وسعاً في العمل على تقدم مرافق مصر الاقتصادية ، فازدادت مساحة الأرض المنزرعة واستغلت الأرض الصالحة للزراعة استغلالاً لم يسبق له مثيل ، وازدهرت الصناعة وراجت التجارة . ولكن إذا كان لم يستفد من ازدياد مساحة الأرض سوى الإغريق ، الذين

Préaux : L'économie royale des Lagides, p. 305.

(١)

Glötz : Le travail dans la Grèce ancienne, pp. 440-1.

(٢)

منحوا هذه الأراضي ، والملك الذى كسب من وراء ذلك ولاء الإغريق وخدماتهم ، فضلا عن الضرائب التى فرضها على هذه الأراضي ؛ وإذا كان الملك هو صاحب أرض مصر ، وكانت الحكومة هى القابضة على ناصية الصناعة ، والإغريق هم أقطاب التجارة والصناعة ، فماذا جنى المصريون أصحاب البلاد وعماد ثروتها ؟ ماذا جنوا من تضاعف مساحة الأرض المتزرعة ، أو ازدياد استغلال الأرض ، أو ازدهار الصناعة ، أو رواج التجارة ؟ لقد كانوا كالشعلة التى تحترق لتثير للغير ، ولم يكن نصيبهم سوى نصيب العبد الكبير الذى يشقى وينصب ليملاً خزان سيدة بالأموال . وهل أدرك البطالة أنفسهم من وراء سياستهم الاقتصادية ونظمهم المالية كل ما كانوا يؤملون فيه ؟ الجواب نعم ولا . فقد أحرزوا كل ما يقوى المال على ابتياعه ، ولكنهم أغفلوا من حسابهم أمرا لعله كان يسيراً فى نظرهم ، إلا أنه هو العماد الأقوى لكل ملك يراد له البقاء ، وذلك هو الروح المعنوى للشعب . فلا عجب أنه عندما استعاد المصريون ثقتهم بأنفسهم هبوا ثائرين فى وجه طغاتهم ، وزلزلوا الأرض تحت أقدامهم ، فكانت ثوراتهم من العوامل الحاسمة فى القضاء على دولة البطالة .

ولما كان بطلميوس الأول يعتقد أن ثروة مصر تتوقف على مساهمة المصريين والإغريق سويا فى العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ، فإنه رأى من الضرورى أن يؤلف بين قلوب هذين العنصرين ، ولا سيما أنه كان يعرف أن للمصريين ديانة موروثة راسخة القدم ، وأن الإغريق أحضروا معهم ديانتهم ومذاهبهم . ولذلك وجه همه إلى التغلب على النفور الدينى الذى كان هرودتوس قد لاحظته من قبل ، وكان من المحتم أن يعوق الألفة بينهم ، بإيجاد ديانة جديدة تربط بين هذين العنصرين المختلفين اللذين كان أهم عنصرين بين سكان البلاد (١) . وقد استقر الرأى على أن تكون محور الديانة الجديدة ثلاثة آلهة مصرية ، قُدمت للمصريين فى ثوبها المصرى ، ولالإغريق فى ثوب إغريقى ، على أنها نظائر لآلهتهم . ولم يعبد الإغريق هذه الآلهة فقط ، بل كانوا يعبدون أيضا الآلهة المصرية تحت أسماء إغريقية وبعضها بأسمائها المصرية ، فقد أدخل على عقولهم

أن تلك الآلهة لا تختلف في شيء عن آلهتهم . وفضلاً عن ذلك ، فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم ضيوفاً على البلاد ، ولذلك كان من إصالة الرأي أن يستجدوا عطف الآلهة التي تشملها بالرعاية^(١) ، إلا أنه حينما كان الإغريق ينزلون في كثرة ، سواء أكان ذلك في المدن الإغريقية أم في خارجها ، كانوا يقيمون المعابد لآلهتهم القديمة^(٢) ، مثل زيوس وأبولو وديمتر . ويكاد يكون من المحقق أن الديانة الحقيقية للإغريق كانت عبادة آلهتهم القديمة ، التي ظلوا على تمسكهم بها إلى أن تلاشى الروح القومي في نفوسهم^(٣) . وإذا كنا نعرف أن الديانة المصرية قد استهوت الإغريق فأقبلوا عليها - ولو إلى حد - إلى جانب ديانتهم القومية ، فإننا لا نعرف أن المصريين أقبلوا على الديانة الإغريقية على الإطلاق .

وقد سلف القول إن البطالمة الثلاثة الأوائل رأوا سلامتهم في الاعتماد على المقدونيين والإغريق وأشباههم ، في تكوين قواتهم البرية والبحرية^(٤) ، لكن هؤلاء الملوك رأوا ألا يسرحوا الفرق المصرية ، خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى إثارة المصريين . ولذلك استبقوها في جيشهم الإغريقي ، بنظمها وأسلحتها القديمة ، بمثابة فرق احتياطية يلجأ إليها في أوقات الضرورة القصوى . وقد استمر الحال كذلك حتى أواخر القرن الثالث ، عند ما واجهت بطلميوس الرابع أزمة خطيرة ، بسبب انقضاخ أنطيوخوس الثالث ملك سوريا على ممتلكاته . وكان ذلك في وقت قل فيه وفود الإغريق على مصر ، وضعفت الروح الحربية بين المقيمين منهم في مصر ، فاضطر إلى الاعتماد على المصريين في منازلة أنطيوخوس ، ولذلك كانوا منذ ذلك الوقت يسلمون بالأسلحة المقدونية ، ويدربون وفقاً لأحدث الأساليب الحربية^(٥) .

وكانت لمصر عاداتها وقوانينها التي ترجع إلى عهود بعيدة تسبق بقرون طويلة الفتح المقدوني الذي حمل في طياته الإغريق بعاداتهم وقوانينهم .

Jouguet: Mac. Imp., p. 338.

Bevan : p. 89.

(٣) إبراهيم نصحي ، ص ٢٩٠

Bevan : p. 166.

(٥) إبراهيم نصحي ، ص ص ١٦٤ و ١٦٥

وقد رأى البطالة في حكمهم أن يتجنبوا بقدر ما تسمح أحوال الحكومة الجديدة المساس بما ألفه المصريون من العادات والقوانين^(١) ، بل أخذوا على عاتقهم تدوين القوانين المصرية ونشرها^(٢) . وفي نفس الوقت استنوا من القوانين ما يتفق وأفكار الإغريق ومن على شاكلتهم ، وذلك من أجل تنظيم العلاقات بين هؤلاء النزلاء الأجانب^(٣) . وهكذا كان يطبق على المصريين قوانينهم التقليدية ، وعلى الإغريق قوانين إغريقية من وضع البطالة . لكن استمرار وجود هاتين المجموعتين من القوانين جنباً إلى جنب أفضى إلى تأثير كل منهما في الأخرى . وتبدو مظاهر الأثر الإغريقي فيما أدخل على القوانين المصرية من الأحكام الخاصة بشؤون الرقيق ، وحماية العقار من اعتداء الغير عليها ، وبعض الالتزامات وبعض شؤون الميراث . ونلمس الأثر الإغريقي أيضاً في بعض المسائل الخاصة بحقوق المرأة ، فقد كان القانون المصرى يحول للمصرية أن تتصرف في نفسها وفيما تملك ، دون أى قيد أو شرط ، وذلك على خلاف المرأة الإغريقية . لكن المرأة المصرية لم تنعم طويلاً بهذه الحرية في عهد البطالة ، فإنهم على الرغم من ادعائهم احترام التقاليد المصرية رأوا أن يساوا بين المرأة المصرية والمرأة الإغريقية ، وذلك دون شك لكي لا تتبرم الإغريقية وتضيق ذرعاً بحالتها ، إزاء ما كانت تنعم به المصرية من الحقوق . إذ يعزى إلى بداية عهد بطليموس الرابع أمر ملكى يحظر على المرأة المصرية الزواج دون إذن وصى ، والتعاقد مع طرف ثالث دون إذن زوجها . وعلى مر الأيام أخذ المصريون عن الإغريق أحد أنواع عقود الزواج الشائعة بينهم باسم Syngraphai Synoikisiou ، ومعناها عقود المعاشرة ، وكانت تتضمن تفصيل التزامات الزوج الخاصة بالطلاق والوراثة^(٤) .

ومن ناحية أخرى تأثر القانون الإغريقى بالقانون المصرى ، فقد أخذ الإغريق عن المصريين القواعد الخاصة بسيطرة الأبوين على أبنائهما ،

Jouguet: op. cit., p. 313; Bevan, p. 157. (١)

Taubenschlag: The Law of Greco-Roman Egypt in the Light of the Papyri, p. 2. (٢)

Rostovtzeff : Social and Economic, p. 324. (٣)

Laubenschlag: pp. 14-16. (٤)

وكذلك عقود الزواج الخاصة بإثبات كل المسائل المالية ، وذلك النوع من الزواج الشائع بين المصريين الذى يدعى *Gamos agraphos* أى زواج المتعة أو الزواج العرفى ، وأخذوا عنهم أيضاً « الرهن الضمانى » و « البيع الوفائى » وبعض أحكام القانون المصرى الخاصة بالالتزامات وبيع بعض نواحي الميراث (١) .

وقد تكشف تأثير كل من القانون الإغريقى والمصرى فى الآخر عن ظهور مجموعة قوانين تتألف من عناصر مصرية وإغريقية ، وتطبق على العنصرين المصرى والإغريقى من السكان . ومع ذلك كانت لاتزال توجد قوانين إغريقية بحت لا تطبق إلا على الإغريق ، وأخرى مصرية بحت لا تطبق إلا على المصريين (٢) .

وبسبب افتقارنا إلى الأدلة لا نستطيع الكلام عن الأثر المتبادل فى العلوم والطب ، على عهد البطالمة ؛ لكن يمكننا الجزم بأن الأدب الإغريقى البطلمى كان أدبا إغريقياً بحتاً ، فإن علماء الأدب انصرفوا إلى تحقيق النصوص الإغريقية القديمة وترتيبها وتبويبها . أما الكتاب والشعراء ، فقد انصرفوا إلى موضوعات لا تمت بصلة إلى الشعب المصرى أو البلاد المصرية ، حتى أن ثيوكرىتوس عند ما كان يتغنى بوصف الطبيعة كان لا يصف مصر بل كبوس وسيراكوز . وكان الشعراء الإغريق لا يعرفون عن مصر — حتى بعد أن عاشوا فيها — إلا ما قرأوه فى القصص والخرافات الإغريقية ، أو ما كتبه هروودوتوس وأفلاطون ، وكانوا لا يوجهون عنايتهم إلى شىء من المميزات المحلية إلا ما يستطيعون استخدامه فى إطراء الملك الذى يرعاهم (٣) . ومع ذلك فإن الكثير من الإغريق قد تعلموا اللغة المصرية ، وحسبنا الإشارة إلى الخطاب الذى أرسلته سيدة إغريقية إلى ابنها ، لتهنئه على تعلمه اللغة المصرية وتعيينه مدرساً خصوصياً ، عند أسرة طبيب مصرى للأمراض الباطنية (٤) .

Taubenschlag: pp. 16-19.

Taubenschlag: pp. 19.

(٣) إبراهيم نصحى ، ص ٨٠٥ .

U.P.Z., 148; Préaux: in Rev. Belge, VIII, 1929, p. 767.

(١)

(٢)

(٤)

ولكى نقدر مدى انتشار الثقافة الإغريقية بين المصريين — على عهد البطالمة — يجب أن نشير إشارة سريعة إلى طبقاتهم ، وحال التعليم عندهم . كانت تأتي في مقدمة المصريين ، قبل الفتح المقدوني ، طبقة الأرسقراطية بشقيها الديني والديني . أما الأرسقراطية الدنيوية ، فيبدو أنه قد قضى عليها قضاء مبرماً ، منذ أوائل القرن الثالث قبل الميلاد^(١) . أما الأرسقراطية الدينية ، فإن البطالمة كانوا أظن من أن يحاولوا القضاء عليها ، وإن كان أوائلهم قد عملوا على تقليص أظافرها^(٢) ، ومع ذلك كانت أهم الطبقات المصرية على عهد البطالمة . وكانت تلي الأرسقراطية الوطنية طبقة المحاربين ، وكانت محدودة العدد في عهد البطالمة ، مهمة الشأن في الشطر الأول منه ، ثم تحسنت حالها في الشطر الثاني^(٣) . وبعد هذه الطبقة كانت تجمي طبقة الموظفين ، وكانت تتألف بوجه عام من صغار الموظفين في الإدارات المحلية . وكان يأتي في مؤخرة الطبقات الإجتماعية ملايين المصريين الذين كان منهم الزراع والصناع والتجار والعمال ، وقد استغلهم البطالمة والإغريق أسوأ استغلال ، وفرضوا عليهم أثقل التبعات والالتزامات ، فلم يكن على شيء من اليسر من هذه الملايين إلا نفر قليل . وكان بعض أولئك النفر القليل زراعاً ناجحين ، واثامهم التوفيق مرتين : إحداهما في أعمالهم الزراعية ، والأخرى في الحصول على إذن من الحكومة باستصلاح بعض الأراضي وزرعها كروماً أو فاكهة ، وبذلك أصبحوا في عداد أرباب أراضي الإمتلاك الخاص . أما البعض الآخر ، فكانوا أولئك الصناع الناجحين الذين لم تحتكر الحكومة صناعاتهم احتكاراً كلياً ، وبذلك لم تغلق دونهم باب الكسب إغلاقاً كاملاً^(٤) .

ونستخلص من الأدلة الطفيفة التي لدينا عن التعليم : — أولاً ، أن الأمية كانت فاشية بين المصريين على عهد الفراعنة ، وبطبيعة الحال لم يعن البطالمة بنشر التعليم بينهم ، لأن نشر التعليم يساعد على تنبيه الوعي القومي ومطالبة الأفراد بحقوقهم ، ويؤدي حتماً إلى رفع مستوى المعيشة ، وهو

Jouguet: in B.I.F.A.O., XXX, p. 519, fn. 1.

(١)

Jouguet: in B.I.F.A.O., XXX, p. 515.

(٢)

Cf. Rostovtzeff: op. cit., pp. 729-9.

(٣)

(٤) إبراهيم نصحي ، ص ٧٥٨ — ٧٥٩

ما كان البطالة يحرصون على تفاديه تحقيقاً لأهدافهم الأنانية^(١) . يضاف إلى ذلك أنه إذا كانت الغالبية العظمى من المصريين لم تقبل على التعليم في أزهى عصور حكامها الوطنيين ، عند ما لم تكن مرهفة بمثل ما أرهفت به في عصر البطالة ، فإننا نستبعد أنها وجهت أى عناية تذكر إلى التعليم ، عند ما كانت فريسة للبؤس على عهد طغاتها الأجانب . ونستخلص ثانياً . أن المدارس المصرية على عهد الفراعنة كانت على الأقل منذ عهد الدولة الحديثة نوعين : — أحدهما المدارس الملحقه بمصالح الحكومة الرئيسية لتعليم الأولاد القراءة والكتابة وتدريبهم على أعمال الحكومة^(٢) ؛ والنوع الآخر مدارس المعابد^(٣) ، فقد كان لكل معبد مدرسته ومكتبته . ولا شك في أن هذه المدارس كانت أعرق من المدارس الحكومية وأرقى منها ، لأن المنشآت الدينية أقدم عهداً من سائر المنشآت ، ولأن الكهنة كانوا أكثر الطبقات المصرية علماً ، ولأن الديانة كانت تلعب دوراً كبيراً في حياة المصريين القدماء . ولا عجب إذن أن كانت أشهر مدارس مصر القديمة طراً مدرسة معبد هليوبوليس التي ذاع صيتها في العالم القديم ، فحج إليها الكثير من فلاسفة الإغريق وكان أفلاطون من بينهم^(٤) .

ولا يبعد أن المدارس الحكومية قد بقيت في عهد البطالة ، وبما أن اللغة الإغريقية قد أصبحت عندئذ اللغة الرسمية في البلاد ، فلا شك في أنه قد فرض تدريسها في هذه المدارس ، وإن كنا نستبعد أنه قد أبطل تعليم اللغة المصرية فيها ، وذلك لأن الهيروغليفية والديموطيقية بقيتا مستعملتين عندئذ ، لا على جدران المعابد ونصب الموقى فحسب ، بل كذلك في الاوائج والقوانين ، وخاصة ما كان منها متعلقاً بشئون الضرائب^(٥) . فلا بد إذن من أنه قد فرض على طبقة الموظفين المصريين تعلم اللغة الإغريقية ، لكن الشك لا يخامرنا في أن أغلب أولئك الموظفين كانوا لا يتذوقون شيئاً من الآداب الإغريقية ، وفي أن حظهم من الحضارة الإغريقية كان تافهاً . ولا بد

(١) راجع إبراهيم نصحي ، ص ٦٤٨ وما بعدها

(٢) Erman-Ranke: Aegypten U. Aeg. Leben in Altertum, pp. 374 ff.

(٣) Dawson: The Age of the Gods, pp. 76-7, 112-3, 123, 132.

(٤) Encycl: Americana, vide Heliopolis.

(٥) Schubart : Einfuhrung, p. 307.

من أن مدرسة الجيش كانت إحدى المدارس الحكومية ، ولا يبعد أن الإغريقية كانت تدرس فيها أيضاً ، وأن حظ أبناء هذه المدرسة من الثقافة والحضارة الإغريقية لم يختلف كثيراً عن حظ أبناء سائر المدارس الحكومية .

وإذا كان البطالمة لم يكلأوا مدارس المعابد برعايتهم ، وفقدت مدرسة هليوبوليس مكانتها القديمة إزاء عظمة جامعة الإسكندرية ، فلا شك في أن المعابد المصرية ، أو على الأقل أكثرها ثراء ، احتفظت بمدارسها^(١) . وإذا كانت الإغريقية قد اقتحمت طريقها إلى المدارس الحكومية ، فإننا نكاد نجزم بأن مدارس المعابد أوصدت دونها أبوابها ، وذلك لأن هذه المدارس كانت معاقل الثقافة المصرية ، واشتهرت باستمساكها بتقاليدها على مرّ العصور . ولعل مرد ذلك أن أقطاب هذه الثقافة كانوا رجال الدين ، وهم بطبيعتهم فئة محافظة ، كانت تعتبر أفرادها حراساً أوفياء على تراث الماضي . ولذلك لم تتغير تقريباً محتويات مكتبات المعابد في عصر البطالمة — بل في العصر الروماني — عما كانت عليه من قبل^(٢) . ولذلك أيضاً لا شك عندنا في أن الثقافة المصرية لم تتأثر بوجه عام بالثقافة الإغريقية في عصر البطالمة ، غير أننا لا نستبعد بل نرجح أن الكهنة الناهيين أو الطامعين في كسب الخطوة لدى البطالمة كانوا يستكملون مؤهلاتهم بتعلم الإغريقية على أيدي مدرسين خصوصيين . وقد أقبل كذلك على التعليم الإغريق أفراد تلك الفئة القليلة من المصريين الذين واتاهم التوفيق في نشاطهم الاقتصادي ، وأخذوا على عهد البطالمة الأواخر يعملون على صبغ أنفسهم بصبغة إغريقية ، طمعاً في الفوز بمركز يعادل مركز الإغريق^٤ . ولعل أبناء هذه الفئة كانوا يتعلمون الإغريقية على أيدي مدرسين خصوصيين ، أو في المدارس الإغريقية المنتشرة في طول البلاد وعرضها من أجل تعليم الإغريق .

ويتضح إذن مما مرّ بنا أنه لما كانت الغالبية العظمى من المصريين أميين ، وكان حظ أبناء المدارس الحكومية من الثقافة الإغريقية تافهاً ، وكان الناهيون من الكهنة وكذلك الوصوليون منهم أو من الزراع والصناع

Encycl. Brit., ed. 11, vide Heliopolis.

(١)

Thompson : Ancient Libraries, Berkeley, California, 1940, p. 2.

(٢)

الناجحين قليل العدد ، فإننا نستطيع أن ندرك كيف أن تغلغل الثقافة الإغريقية بين المصريين كان محدوداً .

ومما يجدر بالملاحظة أن انتشار الثقافة الإغريقية هذا الانتشار المحدود بين المصريين ، كان في النصف الثاني من حكم البطالمة ؛ إذ أنه عند ما ضعف البطالمة ، أخذوا آخرهم - وكذلك الإغريق - يتقربون إلى المصريين ، مما أفضى إلى نتيجتين : - إحداهما انتشار التعليم الإغريقي والآداب الإغريقية بين نفر من المصريين اكتسبوا تبعاً لذلك مركزاً يعادل مركز الإغريق ، والنتيجة الأخرى تعدد حالات الزواج بين الإغريق والمصريين ، وانتشار الأسماء المختلطة بين المصريين المتأخرين والإغريق المتصرين . ولا بد من أنه قد صحب ذلك أيضاً أن استبدل أولئك المتأخرون بشياهم المصرية ثياباً إغريقية . لكن إذا كان من المسلم به أن أغلب المصريين لم يعرفوا شيئاً من اللغة الإغريقية وآدابها ، وأنهم بطبيعة الحال لم يتزاجوا مع الإغريق ، فلا بد أيضاً من أنهم لم يتخذوا جميعاً أسماء إغريقية ولا ثياباً إغريقية . وعلى كل حال ، فإن الثياب لم تكن في أي عصر دليلاً على حضارة مرتديها .

وينهض طراز الفن البطلمي دليلاً قوياً على لون حضارة كل من العنصرين المصري والإغريقي ، ومدى تأثر أحدهما بالآخر . وبسبب ندرة ما وصل إلينا من التصوير البطلمي ، فإننا سنقصر ملاحظتنا على فني العمارة والنحت . إن الغالبية العظمى من بقايا هذين الفنين تشير إلى احتفاظ كل من الفن المصري والفن الإغريقي بخصائصه القومية ، طوال عصر البطالمة . هذا وإن كانت الآثار تشير إلى محاولات طفيفة تجاه مزج طرز الفنين ، لكنها كانت محاولات غير ناجحة . ومن ثم كانت البقايا التي تدل عليها قليلة في عددها متواضعة في قيمتها الفنية ، بالنسبة إلى بقايا الفن المصري الخالص . والفن الإغريقي الخالص . فقد كان كل من الفنين المصري والإغريقي يختلف عن الآخر كل الاختلاف ، ولذلك كان من العيب مزجهما والفوز بمنتجات خليقة بما عُرِف عن المصريين والإغريق من الذوق الفني الرفيع . فلا عجب إذن أنه طالما احتفظ المصريون والإغريق بمستوى ذوقهما الفني ، احتفظ كل من الفن المصري والفن الإغريقي بطابعه

الخاص ، وكانت محاولات المزج بين الفنين محدودة^(١) . لكن عند ما تدهور هذا الذوق في خلال العصر الروماني كثرت هذه المحاولات ، وفي الوقت نفسه قلت المبتكرات الفنية الجديرة بهذا الاسم .

إن الإغريق عند ما انتقلوا إلى مصر حرصوا على أن يحضروا معهم تقاليدهم وعاداتهم ، واستمسكوا بأساليب حياتهم وحضارتهم التي كانوا يعتبرونها أرقى الحضارات طراً ، ولا سيما أنه قد توافرت لهم في مدن مصر الإغريقية — وفي الجاليات الإغريقية المنتشرة بين جنبات الوادي خارج هذه المدن — كل الأسباب التي تساعدهم على أن يحيا حياة إغريقية خالصة . وإذا كان كثير من الإغريق قد تأقلموا ، فإن غالبيتهم العظمى بقيت بوجه عام إغريقية .

ومن ناحية أخرى استمرت الكثرة العظمى من المصريين تعيش بوجه عام ، كما كان أجدادهم يعيشون . فقد استمسكوا هم أيضاً بعاداتهم وتقاليدهم وديانتهم ، واعتزوا بحضارتهم القديمة المحببة التي لم يكن قد مضى عندئذ وقت طويل منذ كانت أعظم حضارة في العالم القديم ، بل حتى عهد قريب كان الإغريق أنفسهم يحجون إلى مصر للاعتراف من مناهل تلك الحضارة . وإذا كنا لا نزال حتى اليوم نفاخر بحضارة أجدادنا على الرغم من تقادم عهدها ، فإننا لا ندهش إذا كان أجدادنا في عصر البطالمة — أي منذ اثنين وعشرين قرناً تقريباً — يزهون ويفخرون ويتمسكون بحضارة أجدادهم .

وبعد فإننا نستطيع أن نستخلص مما أوردنا أن قيام حضارتين مجيدتين — الحضارة المصرية والحضارة الإغريقية جنباً إلى جنب — كان طبيعياً أن يؤدي إلى التقاءهما في بعض النواحي . لكن استمساك كل من أهل هاتين الحضارتين بحضارتهم حال دون اقترابهما ، وامتزاجهما امتزاجاً كلياً بحيث تغلب إحداهما على الأخرى . حقاً كانت الحضارة الإغريقية أرقى حضارة في العالم يومئذ ، بل كانت حضارة حكام مصر ؛ لكن الحضارة المصرية كانت حضارة عريقة ، وحضارة أمة أثبتت في كل أدوار تاريخها الطويل قوة حيويتها وشدة استمساكها بتقاليدها ، فلم يفلح غازٍ من غزاتها العديدين

فى أن يفرض عليها طابعه الخاص . ويجب ألا يغرب عن البال أنه إذا كان فى وسع أى حاكم قوى أن يدخل فى دولته ما يحلو له من نظم الحكم والقوانين والإصلاحات الاقتصادية ، وأن يعلم جنوده ما يشاء من فنون الحرب ، وأن يجعل لغة بعينها اللغة الرسمية فى البلاد ، فإن هذا الحاكم مهما توافر له من السلطة المطلقة لا يستطيع أن يفرض حضارة جديدة على رعاياه ، ولا سيما إذا كانت لهم حضارة قومية عريقة قوامها معتقدات دينية متغلغلة فى نفوسهم حتى الأعماق .

إبراهيم نصحى